ترانيم هرمس

لمؤلفه: جي ار اس ميد

اعداد وترتيب: The Master Library





شعار المكتبة التي قامت بإعداد الكتاب وترتيبه

تاريخ نشر الكتاب بالعربية: 2025/ تاريخ نشر الكتاب الأصلي: 1906

للتواصل مع القائم على المكتبة (زيد العدوان): zaidadwan@gmail.com

الفهرس:

أصداء من الغنوصية

تحت هذا العنوان العام، يُقترح نشر سلسلة من المجلدات الصغيرة، مستمدة من، أو مبنية على، كتابات القدماء الصوفية والثيوصوفية والغنوصية، وذلك لتسهيل سماع بعض أصداء التجارب الصوفية والمعارف التمهيدية لأسلافهم الروحيين على الدائرة المتزايدة باستمرار من أولئك الذين يحبون مثل هذه الأشياء. هناك الكثير ممن يحبون حياة الروح، والذين يتوقون إلى نور التنوير الغنوصي، لكنهم ليسوا مجهزين بما يكفي لدراسة كتابات القدماء بشكل مباشر، أو لمتابعة أعمال العلماء دون مساعدة. لذا، تهدف هذه المجلدات الصغيرة إلى أن تكون بمثابة مقدمة لدراسة الأدبيات الأكثر صعوبة في هذا الموضوع، ومن المأمول أن تصبح في الوقت نفسه، بالنسبة للبعض، الذين لم يسمعوا بعد عن المعرفة، بمثابة خطوات نحو أشياء أسمى.

ج. ر. س. م.

خدمة الغناء

يخبرنا كليمنت الإسكندري أن الفلسفة الدينية بأكملها - أي الحكمة والانضباط والفنون والعلوم المتنوعة - للكهنوت المصري كانت موجودة في كتب هرمس، أي كتب تحوت. ويخبرنا أيضًا أن هذه الكتب صُنفت تحت اثنين وأربعين عنوانًا، وقُسِّمت إلى عدد من المجموعات وفقًا لمختلف فرق الكهنة.

وفي وصفه لموكب من الكهنة في رتبهم المختلفة، يخبرنا كليمنت أن هذا الموكب كان يرأسه ممثل عن رتبة المغنين، الذين تميزوا برموز موسيقية مناسبة، بعضها كان يُحمل على الأيدي، والبعض الآخر كان يُطرز على الثياب. كان على هؤلاء المغنين أن يتقنوا، أي أن يحفظوا عن ظهر قلب، قسمين من كتب هرمس، وهما: تلك التي تحتوي على مجموعات من الترانيم في مدح الآلهة، وترانيم مدح الملوك (3، 222). وقد حُفظت لنا نماذج عديدة من الترانيم المماثلة في مدح الآلهة في النقوش والبرديات المصرية، وبعضها أسمى ما يكون فيضًا من الروح في مدح جلال وسمو الإله الأعظم، بعبارات لا تُقارن بمدح مماثل في كتب أخرى عظيمة. ولكن، للأسف! فقد فُقدت منا كتب تراتيل تحوت، التي يشير إليها كليمنت. ربما يكون مخطئًا، بالطبع، في تحديدها بهذه الدقة، كما أخطأ بلا شك في اعتقاده أنها مجموعات تراتيل ألفها فرد واحد، هو هرمس.

كان المفهوم المهيب لتحوت، كمُلهم جميع الكتب المقدسة ومعلم جميع الأديان والفلسفات، مصريًا لا يونانيًا؛ ولم يكن سوى مُعادل مؤسف وجده اليونانيون في آلهةهم عندما اضطروا، عند تغيير أسماء الآلهة، إلى "ترجمة" "تحوت" إلى "هرمس."

كان تحوت، بصفته مُلهم جميع الكتابات المقدسة ورئيس جميع الانضباط الكهنوتي، كما يُخبرنا يامبليكوس، اسمًا اعتبره المصريون "مشتركًا بين جميع الكهنة" - أي أن كل كاهن، بصفته كاهنًا، كان تحوت، لأنه أظهر في منصبه المقدس سمةً أو أخرى من سمات الكاهن الأعظم أو السيد هيروفانت بين الآلهة، الذي كان اسمه الأرضي تحوت تحوتي.

وهكذا كان تحوت الروح العليا لجميع الكهنة؛ وعندما أدرك بعض اليونانيين ما ينطوي عليه الانضباط الداخلي للأسرار الكهنوتية الحقيقية، شعروا بعدم كفاية اسم هرمس البسيط كمكافئ مناسب للاسم المصري الذي يُشير إلى هذا المثل الأعلى العظيم، لدرجة أنهم أطلقوا على "هرمس المصري" لقب "ثلاثي الأعظم". من تراتيل هرمس العظيم، سأتناول في هذا المجلد الصغير تراتيل مستوحاة من التراث الحي لما كان في حكمة مصر القديمة، كما "تفلسفت" به عقولٌ مُدربة على الفكر اليوناني، وعُرضت في خطاب هيلاس ذي اللسان الذهبي.

ولكن هنا أيضًا، للأسف، ليس لدينا مجموعة محفوظة من هذه التراتيل؛ وكل ما يمكننا فعله هو جمع ما تبقى منها، متناثرًا في صفحات الأدب الثلاثي السام الذي نجت من حسد التبجيل الحصري للكتب المقدسة.

يرد الإنجيل الرئيسي للمعرفة الثلاثية السام في عظة مقدسة تحمل عنوان "بوماندريس" باليونانية. ربما كان هذا في الأصل ترجمةً يونانيةً لاسم مصري (الجزء الثاني، 50)؛ لكن من الرسالة نفسها، يتضح أن أتباع هذه المعرفة اليونانية كانوا يفهمونها على أنها تعني "راعي البشر" أو "الراعي البشري". لم يكن هذا الراعي إنسانًا، بل هو الإنسانية الإلهية أو الإنسان العظيم أو العقل، مُلهم جميع الطقوس الروحية.

وُصفت هذه الحقيقة الجليلة أو جوهر اليقين بأنها حضورٌ لا حدود له، أو شخصٌ، من النور والحياة والخير، يُحيط بالعقل المتأمل لعابد الله أو الخير التقي، ولمحب الجمال بقلبٍ واحد، وللساعي الدؤوب لمعرفة الحق.

(المصدر: ترجمات من الإنجليزية) وهكذا، في توجيهه لمن يسعى لبلوغ مرتبة هرمس الواعي بذاته، يعلن بوماندريس: أنا، العقل، حاضرٌ مع رجالٍ قديسين وصالحين، أنقياء ورحماء، رجالٍ يعيشون بتقوى.

لهؤلاء، يُصبح وجودي عونًا، فينالون فورًا معرفة كل شيء، وينالون محبة الآب بحياتهم الطاهرة، ويشكرونه، داعين إليه بالبركات، ومُرددين الترانيم، مُصغيين إليه بحبٍّ حار (٢، ١٤).

وتتكرر هذه التوجيهات عمليًا في عظة "المفتاح"، حيث نقرأ:

أما النفس التقية، فيرتقي العقل ويهديها إلى نور المعرفة. وهذه النفس لا تكلُّ أبدًا في ترديد أناشيد الحمد لله، وصبِّ البركات على جميع البشر، وفعل الخير للجميع قولًا وفعلًا، اقتداءً بأبيها (٢، ١٥٥).

الشروط الوحيدة للوصول إلى هذا الكمال، والتي نتمناها بشدة، هي: هنا مُوضَّح:

الخير وحده يعرف الخير؛ كما ورد في إحدى دعوات هرمس، بصفته العقل الخيِّر، المحفوظة في برديات السحر اليونانية:

يا إلهي، أدعوك! تعال إليَّ، أيها الخير، أنت الخير كله، تعال إلى الخير! (١، ٨٦).

الطاهر وحده يعرف الطاهر؛ وأعتقد أن هرمس كان يقصد أحيانًا بكلمة "طاهر" أكثر بكثير مما يُفهم عادةً من المصطلح. "الطاهر" هو ما يبقى في ذاته، لا أكثر ولا أقل؛ إنه التوازن،

حالة التوازن، ذلك الشيء الغامض الذي يُوفق بين جميع الأضداد، وهو مصدرها ونهايتها في آنٍ واحد - العدل الإلهي.

الرحيم وحده يعرف الرحيم، مصدر التنوع اللانهائي للحب الإلهي.

لهؤلاء، يُصبح الحضور الإلهي عونًا؛ في حقل هذه "الأرض الطيبة" وحدها، في تربة الطبيعة الروحية التي زرعها الإنسان بنفسه - الطبيعة الطيبة والطاهرة والرحيمة - يستطيع الحضور الإلهي أن يزرع بذور المعرفة السماوية الواعية بذاتها، حتى ينبثق من هذا الرحم العذراء للفضيلة الإنسان الحقيقي، ابن الحرية، أو الإرادة الصحيحة، أو الإرادة الصالحة.

للآخرين، لمن لا يزالون يجهلون الأمور الروحية، يُعد الحضور الإلهي عونًا أيضًا، ولكن دون وعي؛ إذ إنه يتجلى لهم بصورته المعكوسة، عن طريق قيود القدر، فيعتبره الكثيرون عائقًا، وهو بالفعل عائق أمام وقوعهم في جهل وحدود أكبر. يجب تطهير التربة من الزوان وحرثها، قبل أن تُزرع. ولكن عندما يغير الإنسان بإرادته الحرة نمط حياته، ويدور مع حركة الأجرام السماوية بدلًا من الدوران ضدها، فإن الاتصال الواعي بالحضور الإلهي الذي يتم على هذا النحو، يُثير الطبيعة كلها للاستجابة؛ فيتدفق ضوء الشمس إلى قلب الإنسان الحقيقي من جميع الجهات، فيستجيب قلبه؛ فيستيقظ من بين الأموات ويبدأ في النطق بكلمات صادقة. يُعطي الإله العظيم الكلام للقلب في الغيب، تمامًا كما يفعل مع الموتى المُتجسّدين؛ وهذا الكلام غير المنطوق هو تسبيح مستمر للأعمال الصالحة.

وهناك أيضًا كلام منطوق، يصبح واضحًا في كلمات بشرية في تراتيل التسبيح والشكر لله - طقوس التقوى التي تُجيب على الإلهي وبالتالي تكون مسؤولة.

في الواقع، هذا هو أساس كل طقوس وعبادة، حتى في أبسط أشكالها وانعكاساتها - في أحلام قلوب البشر النائمة. لكن كتابات التثليث تتناول الإدراك الواعي للآلام الغنوصية الحقيقية، حيث يجب أن يتحول الشعور بوعي إلى معرفة.

إن غناء الترانيم على الأرض هو انعكاس لسر سماوي. قبل أن يتمكن الإنسان من الغناء بلحن سليم، لا بد أن يكون قد نسجم طبيعته الدنيا وحوّلها إلى كون أو نظام مناسب. حتى الآن، كان يغني بشكل غير متناغم، بشكل فوضوي - يعوي، ويصرخ، ويبكي، ويلعن، بدلاً من الغناء بوضوح، وبالتالي يقدم "قرابين معقولة" لله.

لم يكتمل أو يكتمل نطق "أعضاء" "جسده" الحقيقي أو "قلبه" بعد؛ فهي لا تزال، على حد تعبير الأسطورة المصرية القديمة، متناثرة في الخارج، كما هي، بسبب آلامه التيفونية؛ أطراف جسد حياته متناثرة في جسد موته. لا تزال إيزيس، ذات طبيعته الروحية، تبكي

وتنوح، تجمعهم معًا، تنتظر يوم الفجر الجديد، حين يُكمل العضو الأخير، عضو الغنوص، نظام أعضائه، ويقوم الإنسان الجديد من بين الأموات.

فقط عندما تتناغم هذه "الأطراف" الخاصة به وتُنطق بشكل صحيح، يصبح لديه آلة موسيقية كونية. لا يهم ما إذا كانت الأسطورة القديمة تُخبرنا عن "الأطراف" الأربعة عشر لأوزوريس الميت، أو ما إذا كانت التعليمات اللاحقة تتحدث عن المجالات السبعة للتناغم الإبداعي التي تُشكل "أطراف" كل إنسان، وترى أن كل منها يُنشط بطريقتين، وفقًا لإرادة الإنسان الفردية التي تسير معها أو ضدها - كل ذلك يشير إلى نفس السر. الإنسان في حدوده مزدوج، تمامًا كما هي أطرافه الجسدية؛ الإنسان في حريته، كما هو مُصمم كونيًا، هو اثنان في واحد في كل شيء. ولذلك، عندما يحدث هذا "التغيير في النزعة الغنوصية"، يحدث تحول عجيب للطبيعة كلها. يتخلى عن انفعالاته التيفونية، تلك التي تُنشط الطبيعة التي حاربت الله، لكي يُعجّل ما أسماه الكاتب المجهول لتلك التحفة الصوفية "حلم رافان"، والتي سمّاها بدقة "الكارثة الإلهية"، ويُدمّر التيتان بداخله بسرعة أكبر، أو بالأحرى يتحول إلى الله. فمع أن هذه الانفعالات تبدو لنا الآن وكأنها من "الشيطان"، ومع أننا ننظر إليها على أنها وليدة قوى تُحارب الله، إلا أنها ليست شريرة في الحقيقة؛ إنها تجارب في طبيعتنا للطاقات الطبيعية للتناغم الإلهي - ذلك المحرك الغامض للقدر، والذي هو الوسيلة السباعية للتجلي، وفقًا لتقاليدنا المثلثية. بالنسبة لله إن الروحانية هي الأداة الإبداعية للطاقة الإلهية، التي تُنتج باستمرار أشكالًا في الجوهر للوعي، وبالتالي تُكمل تدريجيًا شكلًا قادرًا على تصوير الإنسان الكامل. أما الطاقات الطبيعية التي كانت تعمل حتى الآن من خلاله دون وعي، لكي يولد الوعي الذاتي من خلال الشكل، فيعتبرها المبتدئ، في المراحل الأولى من ولادته الغنوصية، معادية؛ فقد نسجت له ثيابًا جلبت له الخبرة، لكنها تبدو الآن كخرق لا يريد أن يخلعها، لكي يرتدي ثيابًا جديدة من القوة والجلال، وبالتالي يستبدل مسح العبد بثياب الملك. ورغم أن الثياب الجديدة من نفس الخيط ومنسوجة بطاقات نفس النول، فإن النساج يعمل الآن على تغيير الملمس والتصميم؛ إنه الآن يتعلم بفرحٍ غنوصيًا أن يتبع خطة النساج العظيم، فيكشف ببهجةٍ عن خرق عيوبه الماضية ليعيد نسجها في "كتانٍ ناعم" يليق بالملك أوزوريس.

هذا التغيير الغنوصي موجود في أطروحتنا التي وصفها العقل العظيم وهو يُعلّم العقل الصغير، على أنه

يتبع نزع رذائل الروح، التي يُقال إنها تنشأ من

الوضع التنازلي لطاقات المجالات السبعة لتناغم القدر.

ويُوضّح التطويب اللاحق في الإعلان التصويري التالي:

وبعد ذلك، مع كل تنشيط التناغم الذي جُرّد منه، يأتي إلى تلك الطبيعة

التي تنتمي إلى الثامن، وهناك مع أولئك الذين هم يهتفون للآب.

أولئك الذين هناك يرحبون بقدومه هناك بفرح؛ وهو، إذ صار شبيهًا بمن ينزلون هناك، يسمع القوى التي تفوق طبيعة الثامن، تُنشد تسبيحها لله بلغة خاصة بها.

ثم يذهبون، جماعةً، إلى دار الآب؛ ويُسلمون ذواتهم للقوى، وبذلك يُصبحون قوىً هم في الله. هذه هي النهاية الطيبة لمن نالوا المعرفة - أن يتحدوا مع الله (٢: ١٦).

هذا هو التغيير في النزعة الغنوصية الذي يحدث في طبيعة من ينتقل من مرحلة الإنسان العادي، التي يصفها هرمس بأنها "مسير القدر"، إلى تلك الرجولة الحقيقية التي تؤدي في النهاية إلى الألوهية.

قسم المصريون القدماء الإنسان إلى تسعة أشكال على الأقل من التجليات، أو أنماط الوجود، أو مجالات الوجود، أو أي عبارة نختارها لتسمية هذه الفئات من طبائعه.

أعتقد أن عبارة "مُتَكَلِّلاً بِقُدرَتِهِ الْخَالِقَةِ" تُشير إلى إحدى طبائع الإنسان. تُرجم كلمة "سِخْم" عادةً إلى "قُدرة"، ولكن ليس لدينا وصفٌ لها يُمكّننا من التحقق من الترجمة بشكلٍ كافٍ؛ لذا أقترح أن كلمة "خَيْبِت"، وإن كانت تُرجمت عادةً إلى "ظِل" (المجلد الأول، ٨٩)، ربما تكون السر الذي يُشير إليه نصنا، لأنه "في تعاليم مصر، حول الكائن المُشعّ [ربما الرن أو الاسم]، الذي في حياته المُتجددة يُمكن أن يُشبِه نفسه بمجد الألوهية، تشكّل الخَيْبِت، أو الغلاف الجوي المُنير، المُكوّن من سلسلة من الأغلفة الأثيرية، تُظلّل وتُبدّد بريقها المُلتهب في آنٍ واحد، كما يُظلّل الغلاف الجوي للأرض أشعة الشمس ويُبدّدها" (المجلد الأول، ٧٦). وقد تجسد هذا في لفافات الكتان على المومياء، لأن "تحوت، الحكمة الإلهية، يلف روح المبررين مليون مرة بثوب من الكتان الناعم"، كما شد يسوع نفسه في عمل مقدس معين بـ"قطعة قماش من الكتان" وصفها ترتليان بأنها "الثوب المناسب لأوزوريس" (1، 71). ويخبرنا بلوتارخ أن الكهنة كانوا يرتدون الكتان "بسبب اللون الذي يبعثه الكتان المزهر، والذي يشبه الإشعاع الأثيري الذي يحيط بالكون" (1، 265). ويتجلى السر نفسه في المقطع الرائع الذي يصف تجلي يسوع في الإنجيل الغنوصي المعروف باسم "بيستيس صوفيا"، وهو من التراث المصري الأصيل تقريبًا. إنه وصفٌ صوفيّ لتحولٍ أو تحوّلٍ عجيبٍ يحدث في جوهر السيد، الذي صعد ليرتدي رداء المجد، ويعود إلى وعي قواه الدنيا، أو تلاميذه، مرتديًا رداء قوته.

"رأوا يسوع ينزل مُشرقًا للغاية؛ لم يكن هناك مقياس للنور الذي أحاط به، لأنه أشرق أكثر سطوعًا مما كان عليه عندما صعد إلى السماوات، حتى إنه يستحيل على أي شخص في هذا العالم وصف النور الذي كان فيه. أطلق أشعةً مُشرقةً للغاية؛ كانت أشعته بلا حدود، ولم تكن

أشعة نوره متساوية معًا، لكنها كانت من كل شكل ونوع، بعضها أكثر إثارة للإعجاب من البعض الآخر بطريقة لا نهائية. وكانت جميعها نورًا نقيًا في كل جزء في نفس الوقت.

"كان من ثلاث درجات، إحداها تفوق الأخرى بطريقة لا نهائية. الثاني الذي كان في الوسط، تفوق على الأول الذي كان أسفله، والثالث، وهو الأكثر إثارة للإعجاب على الإطلاق، تفوق على الاثنين اللذين كانا أسفله.

المجد الأول وُضع تحت الجميع، مثل النور الذي نزل على يسوع قبل صعوده إلى السماوات، وكان منتظمًا جدًا في ضوئه الخاص" (ص 7، 8).

أعتقد أن هذا المجد الثلاثي كان "جسم النور" لطبيعة مجالات المجد الثامنة والتاسعة والعاشرة في مقياس العشرة الكاملة. في نصنا، أعتقد أن "المُلبس بقوته الخاصة" يجب أن يُشار إليه بقوى المجالات السبعة الموحدة في مجال واحد؛ الثامن، الذي كان مركبة العقل النقي، وفقًا للتقاليد الأفلاطونية، المستندة في الأصل، على الأرجح، إلى التقاليد المصرية. كانت هذه "المركبة" "ذرية" وليست "جزيئية"، باستخدام مصطلحات العلم المعاصر، بسيطة وليست مركبة، متماثلة وليست أخرى "منتظمة جدًا في ضوئها الخاص."

وهكذا عندما يُحدث هذا التغيير الغنوصي في طبيعة الإنسان الداخلية، يكون هناك تغيرٌ مُصاحبٌ طرأ على جوهر "جسده"، وبدأ يُنشد بتناغمٍ مع الأجرام السماوية؛ "مع الموجودين يُنشد الآب."

يعرف الآن لغة الطبيعة، ومعها يُنشد التسبيح باستمرارٍ مُدركًا تمامًا لفرح الحياة. يُنشد أغنية الفرح، وهكذا يُنصت إلى أناشيد أبناء الله المُبهجة الذين يُشكلون أولى الجوقات غير المرئية. يُنشدون له ويُرحبون به؛ وما يُنشدونه يُمكن لمُحبي هذه الأشياء أن يقرأوه في نفس ترنيمة "بيستيس صوفيا" (ص ١٧)، في ترنيمة القوى "تعالوا إلينا" - عندما يُرحبون بالمنفى العائد في اليوم العظيم الذي يحمل هذا الاسم.

ولكن هذا ليس كل شيء؛ فأعلى وأعلى، وأبعد وأبعد، جوقات أخرى من القوى ذات السمو الأعظم تُنشد. ومع ذلك، لا يستطيع المولود حديثًا أن يُنشد بعد يفهمون أو يطيعون أنشودتهم، لأنهم يغنون بلغة خاصة بهم، فهناك ألسنة عديدة للملائكة ورؤساء الملائكة، وللشياطين والآلهة على اختلاف درجاتهم.

لكن الإنسان قد بدأ بالفعل يدرك حرية الكون؛ لقد بدأ يشعر بأنه كوزموبوليتاني حقيقي أو مواطن عالمي، ويشعر بالنشوة في انسجام مع القوى. إنه يختبر اتحادًا لا يوصف يزيل كل خوف، ويتوق إلى إتمام الزواج المقدس الأخير عندما يقدم التضحية العظيمة، ويسلم نفسه

بفرح كل ما كان عليه في الانفصال، ليصبح، بالاتحاد مع أولئك الذين هم وحدهم حقًا، كل ما كان وما هو وما سيكون - وبالتالي واحدًا مع الله، الكل والواحد.

من الواضح إذن أن تراتيل هرمس لدينا على اتصال مباشر بتقليد اعتبر الحياة الروحية خدمة غناء دائمة؛ وهذا تمامًا تماشيًا مع اعتقاد المصريين بأن الإنسان خُلق لغرضٍ واحدٍ هو عبادة الآلهة وتقديم خدماتٍ ورعةٍ لها. وهكذا، فُسِّر واجب الإنسان برمته على أنه نطقٌ بـ "كلماتٍ صادقة" أو ترديدٌ متواصلٌ لأغنيةٍ متناغمةٍ بين الفكر والقول والفعل، فبفضله أصبح الإنسان شبيهًا بالآلهة، وهكذا أصبح في النهاية إلهًا مع الإله العظيم في "قارب ملايين السنين" أو "مركب الدهور"، أي أنه كان في أمانٍ أبدي.

والآن، سننتقل إلى الترانيم الأربع المحفوظة لنا باليونانية من كتاب الترانيم لهذا القداس المقدس حقًا.

الأولى مُلحقةٌ بأطروحة "بوماندريس"، وكان من الواضح أنها تهدف إلى إعطاء فكرةٍ إنسانيةٍ عن طبيعة تسبيح القوى التي أُشير إليها للتو. لأنه، كما سنرى لاحقًا، الأقل رغبَت الجماعةُ، التي أُعلِّمَتْها، بحماسٍ شديدٍ في أن تُكشفَ لهم كلماتُ هذه الأغنية، ظانّةً في جهلِها أنها ترنيمةٌ تُشبهُ ترانيمَ الأرض، ولم تُدركْ بعدُ أنها النموذجُ السماويُّ لكلِّ تمجيدٍ للأرض، سواءٌ عبّرَ عنه الإنسانُ أو الحيوانُ، أو الشجرةُ أو الحجرُ.

يتكونُ الجزءُ الأولُ من ترنيمتنا من تسعةِ أسطرٍ، مُقسَّمةً حسبَ موضوعاتِها إلى ثلاثِ مجموعاتٍ، تبدأُ كلُّ جملةٍ بـ "قدوسٌ أنتَ!". وهكذا، فهي على شكلِ ترنيمةٍ ثلاثيةِ الأجزاءِ "قدوسٌ، قدوسٌ، قدوسٌ!" - ولعدم وجود عنوان مناسب، يمكننا أن نسميها "ترنيمة ثلاثة

ترنيمة ثلاثية

قدوس أنت يا الله، أبو الكليات.

قدوس أنت يا الله، يا من تُكمل إرادته بقدراته.

قدوس أنت يا الله، يا من تُريد أن تُعرف وتُعرف بقوتك.

قدوس أنت، يا من خلقت بالكلمة الأشياء الموجودة.

قدوس أنت، يا من صُنعت منه الطبيعة كلها صورة.

قدوس أنت، يا من لم تُخلق الطبيعة صورته قط.

قدوس أنت، يا أقوى من كل قوة.

قدوس أنت، يا من يسمو فوق كل تفوق.

قدوس أنت، يا من أفضل من كل مديح.

اقبل عطايا عقلي نقية، من روحي وقلبي، لأنها مُمتدة إليك، يا من لا يُوصف، يا من لا يُنطق باسمه إلا الصمت!

أنصت إليّ، أنا الذي أدعو ألا أفشل أبدًا في المعرفة - المعرفة التي هي طبيعة كياننا المشترك - واملأني بقوتك، وبنعمتك هذه، لأمنح النور لمن يجهلون الجنس البشري، إخوتي وأبنائك!

ولهذا السبب أنا آمن، وأنا أشهد. أذهب إلى الحياة والنور. تباركت أنت يا أبانا. سيكون إنسانك قدوسًا كما أنت قدوس، كما منحته سلطانك الكامل.

"قدوس أنت يا الله، أبو الكليات." يُمدح الله أولًا بصفته أب الكليات، أي أب عظماء كل الأشياء، والعظمة الأيونية، أو الأسرار العليا المتعددة والواحدة - جوهر الكائن الإلهي في حالة الألوهية النقية.

"قدوس أنت يا الله، يا من تُكمل إرادته بقواه الخاصة".

يُمدح الله بعد ذلك بصفته قوة كل الأشياء أو قدرته؛ لأن الإرادة تعتبر عند غنوصيينا الوسيلة التي يكشف بها الإله عن نفسه لنفسه من خلال الفعل العظيم المتمثل في خلق ذاته في ذاته. "منك" هي كل الأشياء عندما يُنظر إلى الله على أنه الأبوة الإلهية؛ و"بواسطتك" هي كل الأشياء عندما يُنظر إلى الله على أنه الأمومة الإلهية. فهذه الإرادة هي الحب الإلهي الذي هو

وسيلة كمال الذات، ومصدر كل اكتمال ورضا، ومصدر اليقين والنعيم. الإله يُدخل نفسه إلى الأبد في أسراره الخاصة.

"قدوس أنت يا الله، يا من تريد أن تُعرف وتُعرف بذاتك".

إرادة الله غنوصية؛ هو يريد أن يُعرف. تكتمل الغاية الإلهية في معرفة الذات. الله قابل للمعرف، ولكن فقط من خلال "ذاته"، أي بالبنوة الإلهية، كما يسميها باسيليدس، الغنوصي المسيحي، أو من خلال سلالة أبناء الله، كما يصفها فيلون وغنوصيونا وغيرهم من نفس الفترة.

البنوة جنس، وليست فردًا، لأن أبناء البنوة قد كفوا عن الانفصال، و"سلموا أنفسهم للقوى، وبذلك أصبحوا قوى، فهم في الله". إنهم واحد مع بعضهم البعض، لم يعودوا منفصلين، ويستخدمون حواسًا وأعضاءً منقسمة؛ لأنهم يشكلون الكلمة المعقولة أو العقل (اللوغوس) الذي هو أيضًا العالم المعقول (الكوسموس) أو نظام كل الأشياء.

8

تحتفل التسبيحات الثلاثة التالية بنفس الثالوث، لما قد نسميه، لعدم وجود مصطلحات مناسبة، الوجود والنعيم والذكاء، ولكن الآن في شكل آخر - شكل التجلي أو المعلومات في المكان والزمان وجوهر الكون المحسوس، أو كون الأشكال والأنواع.

تشير مصطلحات الكلمة والطبيعة الكلية والشكل إلى الأقانيم الثلاثة أو الهايبركسيس أو الأقانيم لهذا الشكل من التجلي الذاتي الإلهي. الكلمة هي نائبة الوجود، لأنها الكلمة أو العقل الذي أسس وجود كل الأشياء، ذلك الذي فيها يُسببها على ما هي عليه، والسبب الجوهري لوجودها؛ الطبيعة كلها هي أساس أو جوهر وجودها، المُستقبلة لكل شيء أو الممرضة، كما يسميها أفلاطون، التي تُغذيها، مانحة النعيم، الدائمة الوجود التي هي صورة الأبدية؛ بينما الشكل هو انطباع الذكاء الإلهي، مصدر كل تحول وتحول.

يُغني الثالوث الأخير مديحًا لتعالي الله، مُعلنًا عجز الكلام البشري عن إنشاد مديح الله بشكل كافٍ.

لذلك يُقال إن القداس الإلهي الوحيد المناسب، أو خدمة الله، يكمن في قرابين العقل وحده، العقل أو الكلمة الذي هو المبدأ الإلهي في الإنسان، صورة الصورة، أو الإنسان الإلهي، الكلمة. إنه التصاعد المستمر لتوتر الطبيعة بأسرها، الذي يُقرّب الإنسان أكثر فأكثر من الله، في صمتٍ مُنذِرٍ بالتأمل النشواني، حين يتجه وحيدًا إلى "الوحيد"، كما يقول أفلوطين. لا يُمكن التعبير عن اسم الله إلا بالصمت، لأنه، كما نعلم من بقايا المعرفة المسيحية، فإن هذا الصمت، أو "السيغا"،

هو عروس الله، والعروس الإلهية وحدها هي القادرة على التعبير الكامل عن الابن الإلهي، اسم الله أو الكلمة.

الدعاء من أجل المعرفة، من أجل تحقيق حالة البنوة، أو الوعي الذاتي للكائن المشترك الذي يجمع الابن بالآب. يُستكمل هذا باكتمال طبيعة الإنسان كاملةً، باكتمال نقصه أو نقصانه (هستيريما)، فيصبح بذلك ملءَ الكمال (بليروما)، أيونًا أو أبدية. ويتحقق هذا بنزول القوة العظمى عليه، ببركة إرادة الله الصالحة، تلك الموهبة أو النعمة أو المحبة، التي كانت أمه الإلهية على مرِّ العصور، والتي أصبحت الآن زوجته الإلهية أو مُكمِّلته أو نقطة التقاءه.

الصلاة ليست من أجل الذات، بل من أجل الآخرين، حتى يصبح الإنسان وسيلةَ استنارةٍ لمن لا يزالون في الظلمة، والذين لم يعرفوا بعدُ بشرى البنوة الإلهية، والذين يجهلون سلالة الحكمة، ولكنهم مع ذلك، مثل جميع البشر، إخوة المسيح وأبناء الله. وهكذا في نشوة التسبيح هذه، يشعر المسافر، وهو يترنم على طريق الإلهي، باليقين في داخله بأنه على طريق العودة، ووجهه متجه نحو الهدف الحقيقي؛ ذاهبًا إلى النور والحياة، إلى الأبوة والأمومة الأبديتين المتحدتين دائمًا في في الصالح، المرغوب فيه، أو الأب والأم الإلهي، اثنان في واحد وثلاثة في واحد.

وأخيرًا، كما مُدح الله في جميع الأزمنة بطبيعته المقدسة، أي أنه مُبجَّلٌ للغاية، جديرٌ بالعبادة، جديرٌ بالثناء، وموضعٌ لكل عجب، فإن ما انبثق منه، إنسانه، أو الإلهي في الإنسان، يتوق الآن بوعي إلى أن يصبح من طبيعةٍ مماثلةٍ له، وفقًا لهدف ووصية الآب الذي قدَّره لهذه الغاية بالذات، ومنحه القدرة على كل شيء. إنه حقًا مزمورٌ جميل - هذا ترنيمة هرمس، أي مديحٌ لأحد مُحبي هذه المعرفة، الذي، كما يُعبّر عنه، "بلغ سهل الحقيقة" (١، ١٩)، أو تواصل بوعي مع حقيقة طبيعته الإلهية، فصار هرمسًا بالفعل، قادرًا على تفسير المعنى الباطني للدين، وقيادة الأرواح من الموت إلى الحياة - مُعلّم نفساني حقيقي. لا يُهم من كتبه؛ سواءً أكان يونانيًا أم سريانيًا، فقد يكون قد حمل هذا الاسم أو ذاك، أو عاش من عامٍ إلى آخر، أو من عامٍ إلى آخر، فكل هذا لا يُهم إلا مؤرخي أجساد البشر.

ما يهمنا هنا أكثر هو سكب الروح؛ لدينا هنا رجلٌ يُسكب بوضوح من ملء قلبه أعمق تجارب حياته الباطنية. إنه يخبرنا كيف يُمكن للإنسان أن يتعلم معرفة الله بتعلم معرفة نفسه أولاً، وبالتالي يكشف عن زهرة طبيعته الروحية ويكشف عن خيوط قلبه الأزلي، الذي حُنط ووُضع في القبر عصورًا عديدة من الأرواح التي كانت ميتات حية. والآن، يُمكننا الانتقال إلى ترنيمتنا التالية. إنها موجودة في أطروحة صغيرة جميلة تحمل عنوانًا لموضوعها - "على الرغم من أن الله غير الظاهر هو الأكثر تجليًا" - وهي خطاب من "الأب" هيرميس إلى "الابن" تات. موضوع هذه العظة هو ذلك التجلي الغامض للطاقة الإلهية المعروف الآن جيدًا بالمصطلح السنسكريتي مايا، والذي تُرجم خطأً إلى الإنجليزية باسم "الوهم" - ما لم نجرؤ على أخذ هذا

الوهم في معناه الجذري - وهو الرياضة واللعب؛ لأن مايا، في أسمى معانيها، هي تسلية الإرادة الخلاقة، أو دراما العالم، أو الإله في نشاطه.

المعادل اليوناني لكلمة مايا هو فانتازيا، والتي، لعدم وجود مصطلح واحد في الإنجليزية يُمثلها تمثيلاً صحيحاً، ترجمتها بـ "التفكير الظاهر". وهكذا، فإن فانتازيا الله هي قوة (شاكتي في السنسكريتية) التجلي الذاتي الدائم أو تخيل الذات، وهي الوسيلة التي ينشأ بها كل "هذا" من "ذاك" غير الظاهر؛ أو كما صاغتها أطروحتنا:

هو نفسه، الأشياء الموجودة والأشياء غير الموجودة.

لقد أظهر الأشياء الموجودة، ويحتفظ بالأشياء غير الموجودة في ذاته.

هو الإله الذي يتجاوز كل اسم - هو غير الظاهر، هو الأكثر تجلياً؛

هو الذي لا يمكن للعقل وحده أن يتأمله، هو المرئي للعين أيضاً.

هو الواحد من اللاجسم، الواحد من الأجسام الكثيرة، بل هو الواحد من كل جسم.

لا شيء هناك إلا هو، لأن الكل هو، وهو الكل (٢: ١٠٤).

هو الأشياء الموجودة "هنا" في وعينا الحاضر، وكل ما ليس في وعينا، أو بالأحرى ذاكرتنا - "هناك" في طبيعتنا الأبدية. هو الظاهر والباطن في آنٍ واحد، ظاهر في الظاهر وظاهر في الخفي، ظاهر في كل ما كنا عليه وباطن في كل ما سنكون عليه.

مما لا وجود له يخلق الأشياء الموجودة؛ ولذلك يمكن القول إنه يخلق من العدم - بالنسبة لنا؛ في الواقع إنه يخلق من العدم إلا نفسه. إنه ما يدركه العقل وحده - أي الكون المعقول، أو ما هو مُتَكَوِّنٌ في كينونته الإلهية التي لا تدركها الحواس المنقسمة - وهو أيضًا كل ما تدركه الحواس، المادية منها والفوق طبيعية - الكون المحسوس بأكمله.

يجب أن نُدركه في آنٍ واحد من منظور توحيدي، وتعددي، ووحداني، ومن وجهات نظر أخرى عديدة - بقدر ما يستطيع عقل الإنسان أن يتصوره، ناهيك عن اللانهائية التي لا يستطيع تخيلها. إنه الجسد واللاجسدية في اتحاد دائم. ليس في جسد، لأنه لا يوجد جسد يمكنه احتواؤه، ومع ذلك فهو هو في كل جسد، وكل جسد فيه. "لا شيء إلا هو، لأنه هو الكل."

من الصعب حقًا فهم سبب خوف الكثيرين في الغرب الشديد من مجرد فكرة السماح للأفكار الوثنية بالتسلل إلى تصورهم عن الله. هذا الخوف في الواقع هو من باب الجرأة أو الافتراض المتهور، إذ لديهم الجرأة على تقييد الإلهي وفقًا لتصوراتهم التافهة عمّا يريدون أن يكون عليه

الله، ولذلك يستاءون بشدة من اضطراب رضاهم عن أنفسهم عندما يُشار إليه بأنه لن يتناسب مع الصليب الضيق البائس الذي يودون صلبه عليه.

10

بأي حق لنا، ونحن في جهلنا مجرد مخلوقات ضئيلة في يوم من الأيام، أن نستبعد الله من أي شخص أو أي شيء؟ لكنهم سيفعلون الرد: ليس الله هو المُستبعد، بل نحن الذين نُستبعد أنفسنا منه. في الواقع، مهما حاولنا، لا نستطيع. هذا مُستحيل، لأننا لا نستطيع استبعاد أنفسنا من أنفسنا. ومن نحن بمعزل عن الله؟ هل خلقنا أنفسنا؟ وإن فعلنا، فنحن الله، لأن خلق الذات من اختصاص الإله وحده. لكن النفس التقية ستظل تُجادل بأن الله خير وحده. مُتفق عليه، إن شئت؛ ولكن ما هو الخير؟ هل الخير خيرنا وحدنا، أم خير جميع المخلوقات؟ وإذا كان الله خير جميع المخلوقات؛ فكذلك يجب أن يكون شر جميع المخلوقات؛ لأن خير مخلوق شر آخر، وشر أحدهم خير آخر - وهكذا يُحافظ على التوازن. إن القول بأن الله خيرٌ وحده، ثم تعريف هذا بأنه يعني شكلاً خاصاً من الخير نتخيله لأنفسنا، وليس ما هو خيرٌ حقاً للجميع، هو رؤيةٌ محدودة؛ فمن الخير أن يكون هناك شرٌّ ظاهرٌ في الكون كوحدة الوجود، وأن تكون مفاهيم الإنسان عن الخير الظاهر بعيدةً كل البعد عن الواقع. الحكيم، أو بالأحرى، الساعي إلى المعرفة، هو من يرى في الخير والشر كما يتصوره الإنسان خيراً في كل شر، وشراً أو نقصاً في كل خير.

ولكن إذا قلنا مع هرمس: "الكل هو وهو الكل"، فإننا لا نؤكد أننا نعرف ما يعنيه هذا حقاً، بل نؤكد فقط أننا في هذا الإعلان وجهاً لوجه مع السر الأسمى لكل الأشياء، الذي لا يسعنا إلا أن ننحني أمامه في صمتٍ مُبجل، لأن كل الكلمات تعجز هنا. وهكذا يواصل الصوفي الذي كتب هذه الجمل تأملاته بترنيمة رائعة، تعبر عن عدم قدرة عقل المتعلم على ترديد تسبيحات الله بشكل صحيح، والتي، لعدم وجود عنوان أفضل، يمكننا أن نسميها "ترنيمة إلى الله الآب".

ترنيمة لله الآب

فمن إذًا يُنشد لك تسبيحًا، أو يُنشد لك تسبيحًا؟

إلى أين أُوجّه عينيّ لأُنشد تسبيحك؟ في الأعلى، في الأسفل، في الداخل، في الخارج؟

لا سبيل، ولا مكان حولك، ولا أي شيء آخر من الأشياء.

الكل فيك؛ الكل منك؛ يا من تُعطي الكل ولا تأخذ شيئًا، لأنك تملك الكل ولا شيء ليس لك.

ومتى يا أبتِ أُنشد لك؟ لأنه لا أحد يستطيع أن يُمسك بساعتك أو وقتك.

فلماذا أُنشد أيضًا؟ لأشياء صنعتها، أو لأشياء لم تملكها؟ لأشياء أظهرتها، أو لأشياء أخفيتها؟

كيف أُنشد لك أيضًا؟ ككوني من ذاتي؟ كامتلاكي شيئًا خاصًا بي؟ ككوني مختلفًا؟

لأنك أنت ما أكونه؛ أنت ما أفعله؛ أنت ما أتكلم به.

لأنك أنت كل شيء، وليس هناك شيء آخر غيرك.

أنت كل ما هو موجود، وأنت ما لا وجود له، عقلٌ حين تفكر، وأبٌ حين تصنع، وإلهٌ حين تُنشّط، وخيرٌ وخالق كل شيء (١، ١٠٥).

من ذا الذي يقدر على تسبيح الله، حين يتطلب الأمر من الكون كله، والأكوان التي لا تُحصى من جميع الكائنات، أن تسبيح الله بأي طريقةٍ مناسبةٍ حقًا؟ من إذن، أي إنسان، لديه الفهم الذي يُمجّد الله به كما يليق، حين يعلم في وعيه المنفصل أنه لا يعرف من هو، إلا أنه يبدأ في إدراك أن "من هو حقًا" لا بد أن يكون الله لا غيره؟ بأي طريقة يمكن للإله أن يُسبّح نفسه كما لو كان لغيره، عندما يكون "أنا" و"أنت" واحدًا في جوهرهما، ويبدو أن النطق بالثناء كما لو كان لغيره انحرافًا عن الحالة المباركة لذلك الحدس الإلهي.

هل يُحدّ الله مرة أخرى بالمكان والاعتبارات المكانية؟ هل هناك "إلى أين" فيما يتعلق بالله؟ بالتأكيد لا يمكن أن يكون هناك أي مكان خاص يمكن أن يقال فيه أن الإلهي موجود، لأنه في كل مكان، وجميع الأماكن والفضاءات فيه. لا يمكن أن يقال إنه في القلب أكثر من أي عضو أو طرف آخر من أعضاء الجسم، لأنه في كل شيء وكل شيء فيه. وبالمثل، لا يوجد اتجاه خاص يمكن أن تتجه إليه عيون العقل، لأنه يمكن رؤيته في كل اتجاه من اتجاهات الفكر التي يمكن للعقل أن يمضي فيها؛ وإذا قلنا إن هناك انعطافات شريرة للعقل، وأفكارًا شريرة، فإن من اختبر هذا "التغيير في النزعة الغنوصية" سيجيب بأن الشر الوحيد الذي يعرفه الآن هو عدم الوعي بأن الله موجود في كل شيء، وأنه مع بزوغ هذا الوعي الذاتي الحقيقي، يظهر الجانب الصحيح من كل فكرة مع الجانب الخاطئ في بهجة التفكير الخالص.

ربما يكون من الصعب إلى حد ما متابعة فكرة التسبيح التالي، لأنها تبدو تناقضًا في المصطلحات. ولكن في هذه المرتفعات السامية للفكر البشري، يبدو كل شيء تناقضًا ومفارقة، لأنه حالة من التوفيق بين جميع الأضداد.

قد يقال إنه إذا كان الله هو الذي يعطي كل شيء، فيجب أن يكون هو الذي يتلقى كل شيء أيضًا؛ لكن يمكن التعبير عن النقيض بفكرة الكل واللاشيء بنفس القدر من الدقة كما هو الحال في فكرة العطاء والأخذ، لأن الله لا يأخذ شيئًا بوضوح، لأنه ليس بحاجة إلى أي شيء، لأنه يمتلك كل شيء بالفعل.

12 وإذا كان الله لا يمكن أن يكون محدودًا بالمكان، فمن المستحيل أيضًا أن يكون مشروطًا بالزمان. لذلك لا يمكن ترنيمة "تي ديوم" الغنوصية الحقيقية في وقت واحد فقط، بل يجب أن تُغنى إلى الأبد؛ يجب على الإنسان أن يحول نفسه إلى أغنية تسبيح دائمة في الفكر والقول والفعل. ولا يمكن تسبيح الإله لشيء واحد دون آخر، لأن جميع الأشياء متساوية من الله، ومن يريد أن يجعل نفسه على غرار الله يجب ألا يكون لديه أي تفضيلات، بل يجب أن ينظر إلى جميع الأشياء بعين متساوية، ويحتضنها جميعًا بحب متساوٍ.

بسبب ماذا أيضًا، فيما يتعلق بنفسه متميزًا عن العالم، يمدح الغنوصي الله؟ هل يُسبّح الإلهي لوجوده الذاتي، أم لأنه مختلف، على الأرجح، عن كثيرين ممن ليسوا في المعرفة؟ يتضح عدم جدوى كل هذه التمييزات في الشك الذي يوقظه مجرد طرح مثل هذه الأسئلة، فيتجاهلها مُحب الحكمة جميعًا في اندفاعة رائعة: "لأنك أنت ما أكونه؛ أنت ما أفعله؛ أنت ما أتكلم به". لا يوجد فصل في حقيقة الأشياء. مهما كان الإنسان في هذه الحالة من النشوة، فهو كينونة الله فيه؛ مهما فعل الإنسان، فهو عمل الله فيه؛ مهما تكلم الإنسان، فهو كلمة الله فيه. بل أكثر من ذلك:
فبالنسبة لهذا الوعي، يكون الله في الحقيقة كل الأشياء ظاهرة وباطنة. الله هو العقل عندما نفكر فيه وهو يُفكر ويُخطط؛ الله أبٌ عندما نتصوره راغبًا وخالقًا وموجدًا لكل شيء؛ والله صالح عندما نعتبره خالقًا.

يُبدع أو يعمل أو يتنفس في كل شيء ليمنحه النور والحياة. هو خير أو نهاية كل شيء، كما أنه بداية أو خالق كل شيء.

ترنيمتنا التالية موجودة في طقس البدء الرائع الذي يحمل الآن عنوان "العظة السرية على الجبل"، مع عنوان فرعي "فيما يتعلق بالولادة الجديدة ووعد الصمت"، ولكن يمكن تسميته "بدء التات."

كان هذا التجديد، ولا يزال، سرّ الولادة الروحية أو الولادة من الأعلى، موضوع الأسرار الكبرى، كما كان موضوع التعليمات في الأسرار الصغرى يتعلق بالولادة من الأسفل، سرّ

التكوين، أو كيف يولد الإنسان جسديًا. كان أحدهما الولادة أو التكوين في المادة، والآخر الولادة الجوهرية أو التوالد، وسيلة إعادة الصيرورة كائنًا روحيًا نقيًا. إنها الطقوس الصوفية لوضع الأيدي، طقوس استدعاء هرمس، الكاهن أو الأب على الأرض، حيث توضع يدي مباركة المُنشئ العظيم، العقل الصالح، على رأس تات، المرشح، ابنه. هاتان الأيادي المباركتان ليستا أيديًا مادية، بل قوى، أشعة الشمس الروحية، كما تُرمز إليهما في اللوحات الجدارية المصرية الشهيرة لعبادة أتيم. كل شعاع هو قوة غنوصية، يطرد نورها وفضيلتها ظلام رذائل الروح ويُمهدان الطريق لتحويل الجسد المادي إلى جسد حقيقي شبيه بالشعاع أو نجمي للإله أوغويدس أو أسترويدس، الذي أشرنا إليه تحت معادله المصري في بداية هذا المجلد الصغير.

هذه الطقوس الصوفية للبدء الغنوصي تُولد الإله في الإنسان؛ ومع ذلك، فهو في البداية ليس إلا إلهًا صغيرًا، لا يسمع ولا يرى بعد، بل يشعر فقط. وهكذا، عندما يُختتم الطقس كما ينبغي، يتوسل تات، كرمًا عظيمًا، أن يُسمع منه أنشودة القوى العجيبة التي قرأها في دراساته، والتي يُقال إن والده، هرمس، سمعها عندما وصل إلى الكرة الثامنة أو المرحلة الثامنة أثناء صعوده الجبل المقدس أو الدرج المقدس.

أود، يا أبي، أن أسمع التسبيح والترنيم الذي تقول إنك سمعته عندما كنت في الثامنة.

١٣

ردًا على طلب تات، أجاب هرمس بأنه صحيح تمامًا أن الراعي، العقل الإلهي، في مرحلة تنشئته العليا في الدرجة الأولى من السيادة، تنبأ بأنه سيسمع هذه الأنشودة السماوية؛ وأثنى على تات لمسارعته إلى "نصب خيمته" الآن بعد أن أصبح طاهرًا. أي أن طقوس التطهير الأخيرة قد أُجريت في تات، وقد نزلت عليه قوى الفضائل المُطهّرة، فأصبح لديه الآن القدرة على "هدم خيمته"، أو تحرير نفسه من قيود جسد الرذيلة، وبالتالي النهوض من القبر الذي سجن حتى الآن "روحه الشيطانية"، كما يقول العراف البيثي عن أفلوطين.

ولكن، يضيف هرمس، ليس الأمر كما يفترض تات تمامًا. لا توجد أغنية واحدة للقوى مكتوبة بلغة بشرية ومحفوظة سرًا؛ ولا مخطوطة، ولا تراث شفوي، لترنيمة تُلفظ جسديًا.

لم يُنقل إليّ الراعي، عقل كل سيادة، أكثر مما كُتب، لأنه كان يعلم تمامًا أنني سأكون قادرًا على تعلم كل شيء، ورؤية كل شيء بنفسي.

لقد ترك لي صنع الأشياء الجميلة. لذلك، فإن القوى في داخلي، كما هي في الكل، تنطلق في ترنيمة.

يمكن غناء الترنيمة بأوضاع ولغات متعددة، وفقًا لإلهام المُنشد المُستنير. يصبح الإنسان المولود من جديد مُرتلًا وشاعرًا، لأنه الآن مُنسجم مع التناغم الأعظم، ولا يسعه إلا أن يُنشد تسبيح الله.

يُصبح مُنشدًا للترانيم، ولم يعد مُرددًا لترانيم الآخرين.

لكن تات يُصرّ؛ روحه مُمتلئة بالشوق لسماع صدى الترنيمة العظيمة. "أبي، أريد أن أسمع؛ أتوق لمعرفة هذه الأشياء"!

وهكذا اقتنع هرمس أخيرًا، وشرع في إعطائه نموذجًا لمثل هذا التسبيح، الذي يُمكنه الآن استخدامه بدلًا من الصلوات التي استخدمها سابقًا، والتي كانت أنسب لمن هو في حالة إيمان.

يأمر هرمس تات بأن يهدأ، وينتظر في صمتٍ مُبجل سماعَ الفيض الإلهي القوي لطبيعة الإنسان كلها في مديح الله، والذي سيفتح طريقًا عبر الطبيعة كلها مباشرةً إلى الإلهي. هذه ليست ترنيمة تسبيح عادية، بل هي عملية ثيورجية أو فعل غنوصي. لذلك، يأمر هرمس:

اهدأ يا بني! استمع إلى التسبيح الذي يُبقي الروح مُتناغمة، ترنيمة إعادة الميلاد - ترنيمة ما كنت لأُريد أن أُلقيها بهذه السهولة، لو لم تصل إلى نهاية كل شيء.

ليست، بالطبع، نهاية كل معرفة، بل نهاية طريق التطهير والإيمان التجريبي، الذي هو بداية المعرفة. لم تُدرَّس مثل هذه الترانيم إلا لمن تطهروا؛ ليس لأولئك الذين كانوا عبيدًا للعالم أو حتى لأولئك الذين ما زالوا يكافحون رذائلهم الدنيا، بل فقط لأولئك الذين أعدوا أنفسهم و"صنعوا الخلاص".

"أضاء فيهم وهمٌ غريبٌ عن العالم" (٢، ٢٢٠).

"لذلك،" يقول هرمس، "لا يُعلّم هذا، بل يُحفظ مخفيًا في صمت".

إنه ترنيمة يجب استخدامها احتفاليًا عند شروق الشمس وغروبها.

وهكذا يا بني، قف في مكان مكشوف للسماء، مواجهًا الغرب، عند غروب الشمس، وقدم عبادتك؛ وكذلك أيضًا عندما يشرق، ووجهه إلى الشرق.

ولمن لا يستطيعون إتقان الطقوس على جميع المستويات، فليقفوا عراة، وقد جُرّدوا من كل ثياب الرأي الزائف، عراة في وسط مجال السماء العليا الصافي، مواجهين مباشرةً للشمس الروحية، أو عين العقل التي تنير المجال العظيم لطبيعتنا الروحية في سكون الذكاء المطهر.

١٤

وهكذا هرمس، قبل أن يُغني ما يُسمى "السر "ترنيمة"، ينطق مرة أخرى بالأمر الجليل: "الآن يا بني، اهدأ"!

15

ترنيمة سرية

فلتستقبل كل طبيعة في العالم ترنيمة ترنيمتي!

افتحي يا أرض! دعي كل صاعق من الهاوية يندفع نحوي! لا تتحركي يا أشجار!

سأُنشد لرب الخليقة، الكل والواحد.

افتحي أيتها السماوات، ويا رياحي، فلتستقبل كرة الله الخالدة كلمتي!

لأني سأُنشد تسبيح من أسس كل شيء؛ من ثبّت الأرض، وعلّق السماء، وأمر أن يُمدّ المحيط الأرض بالماء العذب، للأجزاء المأهولة وغير المأهولة، لرزق كل إنسان ونفعه؛ من جعل النار تتألق للآلهة والبشر في كل عمل.

لنسبحه معًا جميعًا، أيها السامي فوق السماوات، يا رب كل طبيعة! هو عين العقل؛ فليقبل مديح قواي هذه!

يا أيتها القوى التي في داخلي، ترنّمي الواحد والجميع، غنّي بإرادتي، يا كل القوى التي في داخلي!

يا أيتها المعرفة المباركة، المستنير بك، أنشد من خلالك النور الذي لا يراه إلا العقل،

أفرح بفرح العقل.

غنّي معي التسبيح، يا كل القوى!

غنّي التسبيح، يا ضبطي لذاتي؛ غنّي من خلالي، يا برّي، تسبيحات الصالحين؛ غنّي يا مشاركتي في كل شيء، تسبيحات الكل؛ من خلالي، غنّي يا الحقيقة، تسبيحات الحقيقة!

غنّي يا صالح، يا صالح! يا حياة ونور، منّا إليك تتدفق تسبيحاتنا!

يا أبتاه، أشكرك، أنت طاقة كل قواي؛ أشكرك، يا إلهي، أنت قوة كل طاقاتي. عقلك يُنشد من خلالي تسبيحك. استرجع من خلالي الكل إلى عقلك قربانيتي المعقولة!

هكذا تصرخ القوى في داخلي. إنهم يُنشدون تسبيحك، أنت الكل؛ إنهم يفعلون إرادتك. منك، إرادتك؛ إليك، أنت الكل. اقبل من الجميع قربانهم المعقول. كل ما فينا، يا حياة، احفظه؛ يا نور، أنره؛ يا الله، ألهمه!

عقلك هو الراعي لكلمتك، يا خالق، واهب الروح للجميع.

لأنك أنت الله؛ هكذا ينادي إليك إنسانك، من خلال النار، من خلال الهواء، من خلال الأرض، من خلال الماء، من خلال الروح، من خلال مخلوقاتك.

من دهرك وجدتُ التسبيح؛ وفي إرادتك، موضوع بحثي، وجدتُ الراحة (٢، ٢٣٠-٢٣٢).

نرى على الفور أن هذا ليس بالأمر العادي ترنيمة، ليست ترنيمةً مُصممةً على نمط المزامير التي اعتدنا عليها، بل هي تدفقٌ غنوصيٌّ لرجلٍ بدأ يُدرك طبيعة كرامته الروحية ومكانته اللائقة في الكون، استنادًا إلى تقاليد ما هو الأفضل في الثيورجيا المصرية، أو ذلك الإلهام الإلهي الذي يُرسل كلماتٍ آمرةٍ تُطيعها الطبيعةُ كلها طواعيةً.

16

إنه على وشك أن ينطق بكلماتٍ "حقيقية"، كلماتٍ تنطلق من الحق إلى الحق، دون عائقٍ أو مانع. لذلك، ستستقبل كلُّ طبيعةٍ هذه الكلمات وتُسلِّمها. ستُسارع جميع العناصر إلى خدمة الإنسان الذي يخدم الله بالطقوس الشرعية لطبيعته كلها.

ستفتح الأرض في الوسط، والسماء في الأعلى، والهاوية في الأسفل، جميع أبواب طرقها السرية لتسمح للكلمات الحقيقية لمن هو "صادقٌ في الكلمة" بالمرور إلى المجال الخالد للإله الحق - الذي هو، إلى الدهر نفسه حيث يسكن الإله الحق، ليس إلى فضاء من السماء أو الأرض أو الهاوية، بل إلى ما يتجاوزها، وهو مصدرها وحافظها وغايتها جميعًا. ليست أشجار الأرض فحسب، بل أشجار الفردوس أيضًا، الكائنات الإلهية التي تسكن النعيم الأيوني، سترتاح في صمتٍ مُبجل بينما يمرّ التسبيح القويّ للتبجيل اللائق إلى نهاية كل عبادة. ستُسكت رياح الأرض، وكذلك رياح السماء، الأنفاس الذكية في أعمق غرف عقل الإنسان الأعظم. لأن التسبيح لا يُسكب لهذا الشيطان أو ذاك أو ذاك، بل لربّ الكل؛ وهم، المطيعون، الذين تتمثل حياتهم في تسبيح الله، لا يسعهم إلا أن يفرحوا لأن العاصي سينضم أخيرًا بمحض إرادته إلى القداس الذي لا يكل. الطبيعة.

الترنيمة تمجيدٌ للواحدِ والجميع، للربِّ الواحدِ لكلِّ الخليقة، الذي هو الواحدُ الخالقُ وهو كلُّ ما هو موجود.

مُعدّ. إنه ترنيمة تُغنّى بتناغم مع طقوس التسبيح، أو خدمة التسبيح، للطبائع الأربعة البدائية العظيمة، العناصر الكونية: الأرض والهواء والماء والنار - الأب السماء والأم الأرض، الأب النار والأم المحيط. يُنشد الإنسان معهم مجد ربهم المشترك، عين العقل - أي العقل، الشمس الروحية الحقيقية، التي تُعدّ عيونها شموسًا لا تُحصى في الفضاء. هذه الشمس الحقيقية هي النور الحقيقي، النور الذي لا يراه إلا العقل؛ يصبح عقل الإنسان الصغير، المُستنير الآن بنور المعرفة، من طبيعة العقل العظيم، وهكذا ثالوثًا منشوريًا من الخير والنور والحياة، يشرق من

خلاله تألق الواحد والجميع في سباعي القوى أو الفضائل. هذه القوى، باستثناء واحد، مُعطاة في ترانيمنا بالتصنيف الدقيق الذي وردت به في نص الطقوس الصوفية، وهي: المعرفة، والفرح، وضبط النفس، والعفة، والصلاح، والمشاركة مع الجميع، والحقيقة - التي تطرد على حدة الجهل، والحزن، والإفراط، والشهوة، والإثم، والجشع، والخطأ. ومع مجيء الحقيقة، يكتمل قدر الخير، إذ ينضم إلى الحقيقة الخير والحياة والنور.

وتتكشف طبيعة أشخاص الثالوث الأخير بشكل أكبر، وقابلية هذه الأقانيم للتحول، من خلال مدح الله باعتباره طاقة جميع القوى وقوة جميع الطاقات، أي كنور وحياة مرة أخرى، النور المنشط المذكر، والحياة المغذية المؤنثة، أبوة الله، الخير، الكلمة أو عقل كل الأشياء. وهكذا يُحوّل كاتب المزمور الغنوصي تسبيحه أخيرًا إلى تقديم قربان معقول - وهو في النهاية أنشودة الكلمة؛ العقل، ابن الله، المولود الوحيد، يُنشد من خلال طبيعة الإنسان بأكملها، ويعيد الكون الذي هو نفسه إلى مصدر وجوده. إنه اكتمال العودة العظيمة؛ إرادة الله هي الآن إرادة الإنسان الوحيدة.

"منك مشيئتك؛ إليك الكل".

أي، منك تنبع مشيئتك؛ أنت مصدر مشيئتك، رغبتك، حبك؛ ومشيئتك هي عروسك، التي من خلالها كل الأشياء، الكون كله، مولودك الوحيد، الذي أنت غايته وبدايته، لأنه هو أنت أبدي.

فكما جاء في ترنيمة صوفية أخرى من تلك الفترة (1، 146): "منك الآب، ومن خلالك الأم" - ونضيف إليها "وإليك الابن."

17

وهكذا يواصل المنشد "تقدمته الحكيمة"، تقدمة ذاته الحقيقية، الكلمة الكامن فيه، ملاكه "الذي يبصر وجه الآب على الدوام" - داعيًا أن يُحفظ أو يُخلّص عالمه كله، كل ما فيه منه، بالحياة الأم، وأن يُستنير أو يُشعّ بنور الآب، وأن يُلهم أو يُوحى إليه أو يُصبح روحانيًا بنسمة الله العظيمة التي تتنفس وتُستنشق أبديًا وفي آن واحد. فالإنسان لم يعد الآن مجرد "حرف" أو "سيرة قدر"، بل أصبح "اسمًا" حقيقيًا، إنسانًا حرًا، كلمة الله، كونًا حقيقيًا، منظمًا في انسجامٍ سليمٍ وقانونيٍّ بتحويل الإرادة الذاتية إلى اتحادٍ طوعيٍّ مع إرادة الله؛ وتلك الكلمة، أو الله، أو الملاك، أو الراعي، أو المُطعم - الذي يُعطي الرحيق الإلهي، أو الطعام الروحي، الذي تتغذى به تلك الكلمة - هو العقل العظيم، أو النور، أو المُنير، توأم الروح العظيمة، أو الحياة المُخلّصة، المُلهِم والحافظ، وكلاهما مُنِحَ لنا من الله الخالق. لقد أصبح الإنسان الآن إنسانًا، كلمة، كائنًا عقلانيًا حقيقيًا، تُعبّر عن طاقته في أفكارٍ حيةٍ يمكن طبعها في أرواح وعقول البشر، وتُعاش في حياةٍ قدوة. من إنسان ناقص، أصبح كونًا كاملًا أو نظامًا أو انسجامًا، وهكذا

يستطيع أن يجعل طبيعته النقية تترنم مع العناصر العظيمة وجوهرها جميعًا، ألا وهو روح الله أو نَفَسه، أتمان الثيوصوفية الهندية.

لأنه ببلوغه هذا النمط الحقيقي من التنفس - التنفس والتفكير بالحياة العظيمة والعقل العظيم للأشياء - لم يعد الإنسان إنسانًا، بل أصبح إنسانًا، أونًا، أبدية،

وبهذا، إذ يعود إلى ذاته الحقيقية، يُعبّر عن فرحه الطبيعي بأغاني التسبيح، ويجد الراحة في السلام العظيم، أمومته الإلهية. يولد من جديد، طفلًا هو المسيح؛ ومع نموه في القامة، نحو الرجولة الكاملة، ستتحول هي، التي كانت أمه حتى الآن، منتعشة بشباب الآلهة الأبدي، من أم إلى زوجة. الترنيمة المتبقية المحفوظة لنا في أدبيات التثليث موجودة في نهاية "العظة الكاملة"، والتي فُقد أصلها اليوناني للأسف. نعتمد كليًا على نسخة لاتينية قديمة، وهي غالبًا ما تكون غير مُرضية.

هذه العظة هي الأطول بلا منازع بين ترانيم التثليث الموجودة لدينا. تُخبرنا المقدمة أن هرمس وأسكليبيوس وتات وأمون اجتمعوا معًا في الأديتوم أو المكان المقدس. هناك، يستمع التلاميذ الثلاثة باحترام إلى مُعلِّم يُلقي تعليمًا مُطوّلًا عن الغنوص، بهدف صقلهم في معرفة الأمور الروحية. ولذلك، يُسمّى هذا الخطاب بحق "الوعظة الكاملة" أو "وعظة البدء."

يُمثّل أسكليبيوس وتات وآمون ثلاثة أنواع من تلامذة الغنوص، أي ثلاثة طبائع بشرية. أسكليبيوس هو الرجل العقلاني، المُلِمُّ بمعرفة مدارس وفنون وعلوم عصره. أما تات فهو حدسيٌّ أكثر منه مُفكِّرًا؛ وهو "شاب" مُقارنةً بأسكليبيوس؛ ومع ذلك، فهو من يخلف هرمس كمُعلِّم، عندما يُؤخذ هرمس إلى الآلهة، لأنه يمتلك طبيعة روحية أكثر تطورًا من أسكليبيوس، بحيث يُمكنه أن يُحلِّق إلى آفاقٍ أسمى من الاستنارة. آمون هو الرجل العملي، الملك، الفاعل، وليس العالم أو الصوفي. ومع ذلك، سيكون من الخطأ أن نبقي هذه النماذج مميزة بوضوح شديد في أذهاننا؛ لأن الثلاثة موجودون باطنيًا في كل منا، والتنوير الحقيقي لطبيعتنا الثلاثية يعتمد على المحبة الأخوية للتلاميذ الثلاثة - يعقوب ويوحنا وبطرس - الذين يجب على كل منهم أن يكمل الآخر، ويخضع نفسه للآخر، ويتنافس مع بعضهم البعض في حب معلمهم، العقل المطهر، أو هرمس، الذي من خلاله وحده يمكن أن تصل إليهم تعليمات العقل العظيم، الراعي. ١٨

وهكذا نجد شروط التأمل الصحيح مُوضحة بشكل درامي في الجملة الأخيرة من مقدمة العظة بالكلمات التالية:

وعندما دخل آمون أيضًا إلى المكان المقدس، وعندما امتلأت المجموعة المقدسة المكونة من أربعة أشخاص بالتقوى وبحضور الله الكريم - إليهم، غارقين في صمت مُهيب، وأرواحهم وعقولهم مُعلقة على شفتي هرمس، هكذا بدأ الحب الإلهي يتحدث

)٢، ٣٠٩.(

هذا الحب الإلهي هو ذلك الحضور نفسه، العقل الأسمى، أو راعي البشر، الذي يُنير هرمس، أو العقل الأعلى في داخلنا، مُباشرةً؛ ولكن يجب أن تُنقل هذه الكلمات الحية المباشرة ذات القوة بكلمات بشرية إلى الطبائع الثلاث لعقلنا الأدنى، أسكليبيوس وتات وآمون فينا، الذين هم المتعلمون والسامعون. بعد انتهاء التعاليم وخروجهم من المكان المقدس، تخبرنا الرواية أنهم أداروا وجوههم نحو غروب الشمس، قبل أن يُرددوا ترنيمة التسبيح. أي، باطنيًا، بعد أن كفّ العقل عن التأمل، حيث ارتقت الطاقات الخارجية إلى الأعالي، أو انقلبت إلى الداخل، وسكنها الأعلى في تواصل الحب الذي باركه حضور الإلهي، تتحد هذه الطاقات، قبل أن تباشر مهامها المنفصلة المعينة، في ترنيمة تسبيح، وأعينها لا تزال متجهة نحو مجد غروب الشمس الروحية الذي يبدو الآن وكأنه قد رحل.

عندئذٍ، يقترح أسكليبيوس، عالم الأشكال فينا، الحكيم في العلوم والفنون والطقوس، على تات، همسًا، أن يقترحوا على أبيهم هرمس أن يُصلّوا صلاتهم إلى الله "مع المزيد من البخور والمراهم". هذا هو إيحاء العقل الذي لا يزال متمسكًا بالأشكال الخارجية، أي الطقوسي. لكن هرمس يُذكّرهم بالطبيعة الغنوصية لطائفتهم الروحية.

الذي لما سمعه أعظمك، حزن وقال:

"كلا، كلا يا أسكليبيوس؛ تكلم بكلمات أكثر ملاءمة! فهذا يُشبه تدنيسًا لطقوسنا المقدسة - عندما تُصلي إلى الله، لتقديم البخور وما إلى ذلك.

"فلا شيء يحتاج إليه، فهو كل شيء وكل شيء فيه.

ولكن فلنسجد، ناشرين شكرنا. فهذا أفضل بخور في نظر الله عندما يُقدم له الناس الشكر" (٢، ٣٨٨).

وهكذا يبدأون تسبيحهم، والذي، لعدم وجود عنوان أفضل، يُمكننا أن نُسميه "ترنيمة نعمة المعرفة".

ترنيمة نعمة للمعرفة

نمنحك نعمة، أيها الأسمى والأسمى! فبنعمتك تلقينا نور معرفتك العظيم. أيها الاسم القدوس، أيها الاسم الذي يليق أن يُعبَد، أيها الاسم الفريد، الذي به وحده يتبارك الله بعبادة سيدنا، أنت الذي تكرمت بأن تمنح الجميع تقوى الأب، وعنايته، ومحبته، وأي فضيلة أعذب من هذه، مانحةً إيانا الحس والعقل والذكاء؛ الحس الذي نشعر به؛ العقل الذي نستدل به على وجودك من بين ظواهر الأشياء؛ وسائل التعرّف التي نبتهج بها بمعرفتك.

مُخلَّصين بقوتك الإلهية، فلنبتهج لأنك أظهرت نفسك لنا بكل كمالِك. فلنبتهج لأنك قصدت أن تكرسنا، ونحن لا نزال مدفونين في أجسادنا، إلى الأبدية. فهذا هو عيد التسبيح الوحيد الذي يليق بالإنسان - أن نعرف جلالك.

نحن نعرفك؛ نعم، بإحساسنا المفرد بذكائنا، أدركنا نورك الأسمى، يا حياة الحياة الحقيقية، يا رحمًا خصيبًا يلد كل طبيعة!

لقد عرفناك، يا ممتلئًا تمامًا بمفهوم الطبيعة الكونية منك!

لقد عرفناك، يا ثباتًا أبديًا!

وهذا كله من صلاتنا في عبادة خيرك، هذه النعمة الوحيدة من خيرك التي نتوق إليها: أن تُبقينا ثابتين في حبنا لمعرفتك، ولا تحرمنا أبدًا من هذا النوع من الحياة (٢، ٣٨٩، ٣٩٠).

نشكرك، ونعمةً على نعمتك، ورضاكَ على رضاكَ. رضا الله، كما تعلمنا سابقًا، هو "يريد أن يُعرف"، ورضا الإنسان هو "حبه لمعرفة الله."

اللاتينية في الجملة التالية غامضة جدًا، ولكن بالنظر إلى مقاطع أخرى وسياق النص، فإن اسم الله الوحيد القابل للنطق هو "الأب". عبادة الله كأب هي دينٌ وتقوى ومحبةٌ حقيقية، لأن هذه هي التعبيرات الطبيعية عن الشكر لله، لأنه هو الذي يُغدق علينا كنوز تقواه وعنايته (religio باللاتينية (ومحبته، مع أن كل هذه الكلمات تعجز عن التعبير عن هذا الإلهي ذي الفعالية، أو قدرة العطاء، الذي يُرضي الله تمامًا؛ لأنه وحده يُعطي بلا حدود، إذ يُنعم علينا بكماله. لقد وهبنا الحس والعقل والذكاء، وهي الوسائل الثلاث لمعرفته: الحس لنشعر بالله في كل شيء، والعقل لنتتبع تجليات الإلهية في كل الظواهر، والذكاء، أو الحدس الروحي، وهو وسيلة الإدراك المباشر، عندما يكون الموضوعي والذاتي، وعندما يمتزج الموضوع بالموضوع، فيكون هناك فرح ورضا كاملان بمعرفة الذات.

إن قوة الله هي إرادة الله، وحسن نيته، التي بها يريد أن يُعرف، أي أن غايته هي المعرفة؛ وهذا يجلب الفرح والابتهاج، لأنه تجلي الله للإنسان بكل ملئه، أي تجلي الامتلاء، الكون

المعقول، أو الله في طبيعة ابنه الوحيد. يترنم "الأربعة المقدسون" فرحًا لأنهم قد قُدِّسوا، وقُدِّسوا ككهنة للعلي، وهم لا يزالون في قبر الجسد؛ وهكذا كُرِّست أجسادهم نفسها كمعابد مناسبة لابن الله، الأيون أو الأبدية.

20 لذلك، فإن عيد المديح الوحيد الذي يليق بالإنسان في طبيعته الإلهية، أي في رجولته الحقيقية أو اتحاده بالعقل العظيم، هو معرفة جلال الله أو عظمته، أي الأيون أيضًا.

تتحقق هذه المعرفة، أو الغنوص، من خلال الإحساس المفرد بالذكاء؛ ليس بالحس وحده، ولا بالعقل وحده، بل بوسيلة أسمى منهما، يمتزج فيها الاثنان في المعرفة، فيصبحان بذلك معرفة الذات، أو نور الله، أو العقل المسيطر على كل شيء، وحياة الله، أو الروح العليا لكل شيء، والتي تُوصف بوضوح بأنها "الرحم الخصيب الذي يلد كل طبيعة."

هذه هي المعرفة الإلهية باعتبارها الامتلاء، أو الامتلاء، المفعمة بمفهوم الطبيعة الكونية من الله نفسه.

وأخيرًا، يُمدح الله لكونه يُعرف بالثبات الأبدي، والاستقرار، والدوام، والثبات، والتماثل.

وهكذا ينتهي هذا الشكر أو النعمة الغنوصية الجميلة بدعاء واحد من أهل الغنوص، ألا وهو أن من هو الثبات الأبدي، أو الله في قدرته على التماثل الأوني، سيُبقيهم ثابتين إلى الأبد في الحب النقي الواحد، حب معرفة الله.

ما أسمى هذه الترانيم الأربعة، تراتيل تليق بكل ما هو أفضل في الإنسان، وكل ما هو أسمى في عابد الله الحقيقي! ليت لدينا كتاب مزامير بهذه المزامير، كما وُجد بلا شك في هذه الجماعة الممتازة من خدام الله ورجال الطقوس الغنوصية! ولكن يا للأسف! بينما حفظ لنا لامبالاة الزمن الكثير من الكُتّاب الكلاسيكيين لدرجة أننا لا نستطيع الاستغناء عنهم إلا نادرًا، فإن غيرة العناية الإلهية قد حجبت عنا الجزء الأكبر من أجمل آثار عبقرية الإنسان الغنوصية - ربما لأن العالم لم يكن مستعدًا لتقديرها.

لذا، لا سبيل لنا إلا أن نتبع نهج هرمس السابق، ونعود إلى "صنع الأشياء الجميلة"، فما حققه الإنسان يستطيع أن يحققه مرة أخرى، وإن لم أكن مخطئًا في تنبؤي، فقد حان الوقت مجددًا لمثل هذا الشعر الصادق.

لم يعد لدينا ترانيم هرمس تُسعد قلوب قرائنا - كما نأمل أن تكون قد أسعدتهم - لكننا سنضيف ترنيمة أخرى مشابهة، لدرجة أنه من الممكن أن تكون من تأليف هرمس من أتباع عقيدة التثليث. إنها "أنشودة مديح للدهر"، التي يُقال إنها نُقشت على "لوح سري" من قِبل أخٍ مجهول من طائفة منسية، ربما إحدى جماعات الدهر - الأسمى والأسمى - التي يُخبرنا فيلون الجبيلي،

في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، أنها كانت موجودة في فينيقيا في عصره، ولا شك أنها كانت موجودة أيضًا في مصر (1، 403). النص موجود في برديات السحر اليونانية.

21

أنشودة مديح للدهر

مرحبًا بك، أيها الكون كله، أيها الروح الأثيري!

مرحبًا بك، أيها الروح، الممتد من السماء إلى الأرض، ومن الأرض التي في وسط فلك الكون إلى أقاصي الهاوية!

سلامٌ لكَ أيها الروح، يا من دخلتَ فيّ، يا من تمسكتَ بي أو انفصلتَ عني بمشيئة الله بطيبة قلبه! سلامٌ لكَ يا بدايةَ الطبيعة ونهايتها التي لا يتزحزح عنها شيء! سلامٌ لكَ يا طقوسَ الطبيعة التي لا تكلُّ من عناصرها! سلامٌ لكَ يا نورَ شعاعِ الشمسِ الذي يُشرقُ لخدمةِ العالم! سلامٌ لكَ يا قرصَ القمرِ المُشرقِ في الليل، الذي يُشرقُ بشكلٍ غيرِ متساوٍ! سلامٌ لكَ يا أرواحَ جميعِ تماثيلِ الآلهةِ الأثيرية! سلامٌ لكَ جميعًا، يا من يُحييكَ الإخوةُ والأخواتُ القديسونَ في تسبيحِهم! سلامٌ لكَ أيها الروحُ القديرُ، يا أعظمَ تكوينٍ دائريٍّ وغيرِ مُدرَكٍ للكون، سلامٌ لكَ! سماوي، أثيري، بين أثيري، كالماء، كالأرض، كالنار، كالهواء، كالنور، كالظلام، مُشرق كالنجوم - روح رطبة، حارة، باردة! أحمدك، يا إله الآلهة، الذي يُعيد الكون إلى نصابه، ويُخفي العمق على عرش استقراره الذي لا تراه عين، الذي يُفصل السماء عن الأرض، ويغطي السماء بجناحيك الذهبيين الأبديين، ويُثبت الأرض على عروش أبدية! يا من علق الأثير في العلو الشاهق، وبعثر الهواء معك انفجاراتٍ متحركة، يا من جعلت دوامة الماء تدور في دوائر! يا من رفعت الزوبعة النارية، وصنعت الرعد والبرق والمطر وهزت الأرض، يا إله الدهور! ما أعظمك يا رب الإله، يا سيد الكل! (١، ٤٠٨، ٤٠٩).

الأيون هو الكون غير المرئي المعقول، الكون الكلي للروح الأثيرية أو الجوهر، على عكس الكون المحسوس للعناصر الأربعة العظيمة، النار والهواء والماء والأرض النقية، وليس عناصرنا المختلطة.

ما على القارئ إلا أن يقارن الجملتين الافتتاحية والختامية لـ"الترنيمة السرية" بالفقرة الأولى من ترنيمتنا ليرى أننا في نفس الدائرة تمامًا. الأفكار.

السماء، والأرض، والهاوية، العوالم الثلاثة التي من خلالها يخطو الروح، مثل فيشنو في بورينا، "ثلاث خطوات."

هذه الروح، نسمة الحياة العظيمة، هي الزفير والشهيق لوجودات الإنسان المتعددة. عندما ينفث الروح، يولد، من موت إلى حياة، ومن حياة إلى موت؛ لأن حياة الجسد موت الروح. وعندما ينفث الروح، يموت، ميتًا عن أمور الجسد، ولكنه حيّ عن أمور الروح.

وكل هذا "وفقًا لإرادة الله في صلاح قلبه". لأن إرادة الله هي طاقة الله، أو عمله الفعال، الذي يتجاوز جميع أفكارنا البشرية عن الحب - التي يمليها صلاح قلبه، الذي يريد دائمًا خير جميع الكائنات، لأن قلب الله هو الخير. هو نفسه، الدهر.

22

الدهر ليس بداية ولا نهاية، بل كليهما؛ فجميع الأجرام السماوية أو الكائنات التي يُنشّطها، تنتهي حيث تبدأ، وتبدأ حيث تنتهي - ترقص في ثورة أبدية، لأن "مكان احتفالها الأبدي" يكمن في دوامة طقوس العناصر التي لا تنقطع. الدهر هو سبب الماجنا فوراجو، الدوامة الجبارة للكون، لأنه الموناد أو الذرة العليا لجميع الذرات وجميع تركيبات الذرات.

الدهر هو الاستنارة أو مصدر النور لجميع أنوار السماء، والشمس والقمر، وجميع "التماثيل الأثيرية للآلهة"، الشموس التي لا تُحصى في الفضاء.

الدهر هو روح، مكون من نور وحياة، وبالتالي أب وأم لجميع الأرواح، التي أجسادها الحقيقية هي الأجرام السماوية النارية، والنجوم أجسامٌ كالشعاع، كالنجم.

لذلك، فإن الإخوة والأخوات في هذه الجماعة من خدام الله الغنوصيين يُسبّحون بحق جميع الآلهة، لأن هؤلاء الآلهة هم الجماعة الحقيقية للقديسين أو القديسين.

في السماء، كما يسعى الإخوة والأخوات ليصبحوا قديسين على الأرض، قديسين كما هم قديسون.

الأيون هو النموذج الأعظم أو المثال الأوحد لكل الأشياء، التكوين الأبدي للكون وكل الأكوان، في سباعية من ثلاثة عناصر جوهرية وأربعة عناصر أساسية، تكتمل بالنور ذي الألوان المتعددة، والظلام عديم الألوان، إلى عقد تكون فيه الروح بدايته ونهايته، موجودة في ثلاثة أوضاع - تُذكرنا بـ "تريغونام"، أو الطبيعة الثلاثية لـ"براكريتي" أو الطبيعة في الثيوصوفية الهندية - رطبة، ساخنة، باردة؛ سوداء، حمراء، بيضاء؛ تاماس، راجاس، وساتفا. إن العمل العظيم لإله الآلهة هو إعادة إحياء الكون، وإنعاشه، وتجديده باستمرار، في طبيعته الثلاثية: العلو والوسط والعمق - الأديم الباطن والأديم المتوسط والأديم الظاهر، كما هو الحال في الخلية الجرثومية الكونية - التي تحتضنها الروح بأجنحتها الذهبية الأبدية، كالطائر العظيم الذي يفقس بيضة الكون باستمرار. ومن هذا الحضن، ينبثق إلى الوجود دائمًا التكوين الكوني الدائم لجميع الأشياء؛ وبما أن جميع الكائنات تنبع من الدهر، فإن كل كائن وكل شيء، في

طبيعته الكونية، هو دهر أيضًا، بحيث يكون الدهر أيضًا إله الدهور. إنه إله ملايين السنين، وملايين الأشهر، وملايين الأيام - سواءً أكانت تلك الفترات الزمنية للأرض أم للكون - وبالتالي إله كل الوجودات، كما هو إله أزلية كل الأشياء.

وهنا يجب أن نختتم كتاب ترانيمنا الصغير، على أمل أن نجد من يردد ترانيم هرمس الوثني حتى في هذا القرن العشرين من النعمة المسيحية؛ فربما، في نهاية المطاف، ليس هرمس والمسيح في الواقع غريبين عن بعضهما البعض كما يصورنا التحيز اللاهوتي التقليدي.

النهاية

نهاية الكتاب